الحركة الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال صورة الأرض لابن حوقل القرن 4 هـ/10 م

الدكتور إسماعيل سامعي

جامعة الأمير عبد القادر

توطئـــة: تعد كتب الرحالة الجغرافيين من أهم المصادر التاريخية، التي تؤرخ لمختلف أوجه الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، ومعلوماتها أوثق بالرغم من اقتضابها لأن الرحالة شاهدوا الموقع الجغرافي، وعايشوا الفعل التاريخي، وعاشوا ظروفه، وحتى الوقائع التي رويت لهم، والمعلومات التي نقلت إليهم كانت مصادرها أكثر وثوقا، لكن اعتمادها من طرف الباحثين يبدو قليلا إذا قيس بالمصادر التاريخية العامة لأن الواقعة التاريخية، أو المادة الخبرية عند الرحالة والجغرافيين خليط من الأخبار السياسية، والاقتصادية، والجغرافية، والاجتماعية، والعلمية وغيرها، فيصعب بذلك فرزها لاسيما على الذين يتعجلون في إنجاز بحوثهم، كما أن عدم التمرس في التعامل مع هذا الصنف من المصادر يزيد في قلة الاهتمام بها.

وانطلاقا من هنا فإنني سأبحث الحركة الاقتصادية في مناطق حواضر المغرب الأوسط (الجزائر) اعتمادا على ما ورد في كتاب الرحالة الجغرافي ابن حوقل من خلال كتابه "المسالك والممالك والمفاوز والمهالك" المعروف بـ "**كتاب صورة الأرض**" فمن هو ابن حوقل ؟ وما طبيعة تأليفه، وماذا أفاد به في مجال الحركة الاقتصادية في بلاد المغرب الأوسط؟

ابن حوقـــــل: أو الحوقلي[1] (أبو القاسم البغدادي) رحالة عربي، وجغرافي مشهور لا يعرف عن حياته إلا القليل، وهو يذكر عن نفسه أنه ترك بغداد في شهر رمضان ســـنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة/مايو 943م[2] بقصد دراسة البلاد والشعوب الإسلامية، وبهـــدف الكسب عن طريق التجارة، وكان يدرس بشغف مؤلفات المتقدمين كالجيهـــاني، وابـــن خرداذبة، وقدامة[3]، وقد جاب العالم الإسلامي طلبا لدراسة الممالك والبلدان، ورغبة في الارتزاق عن طرق التجارة، وانتهى منها بعد ما يقرب من ثلاثين عاما زار خلالها ديـــار الإسلام من الشرق إلى الغرب، كما زار بلادا أخرى في أوربا كبلاد البلغار[4]، ويقول ابن حوقل عن رحلته الطويلة هذه :"وقد ذكرت في آخر كتابي هذا كيف تعاورتني الأسفار، واقتطعتني في البر دون ركوب البحار إلى أن سلكت وجـــه الأرض بأجمعـــه في طولهـــا وقطعت وتر الشمس على ظهرها، ووصفت رجالات أهل البلدان، وأعيان ملوكها مـــن ذوي السلطان، وأهل الإمكان، والمقدمين في كل ناحية وبلد، بالإحسان إلى ذكر النادرة بعد النادرة من محاسنهم، والفضيلة بعد الفضيلة من مكارمهم"[5].

---

1 – الإدريسي عبد الله بن إدريس، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، (روما، 1970)، 177/2؛ أبو الفداء المؤيد عماد الدين، **المختصر في أخبار البشر**، تعليق، محمود ديوب، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997/1417)، 1/؛ شمس الدين أبي عبد الله محمد أب طالب، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، (طبع بطروسبورغ، 1865) 139؛ ابن خلدون عبد الرحمن، **المقدمة**، (ط، 3، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1967)، 91/1.

2 – انظر، طبعة ليدن بمطبعة بريل سنة 1938، والذي أعادت طبعه مصورا دار صادر، بيروت، ص 3.

3 – انظر، أرنسك C. van. arendonk، ابن حوقل، **دائرة المعارف الإسلامية** (بيروت: دار المعرفة)، 145/1.

4 – زكي محمد، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، (القاهرة، 1945)، 40.

5 – **صورة الأرض**، 4.

ويحتمل أن يكون قد لقي في رحلته الطويلة الأصطخري (عاش في النصف الأول من القرن 4 هـ/10م)صاحب كتاب " المسالك والممالك " سنة 340 هـ/651-952م الذي طلب منه تهذيب بعض خرائطه الجغرافية، ومراجعة مصنفه، إلا أن ابن حوقل عدل عن تنفيذ هذا الطلب وصنف:"المسالك والممالك"[1]، يبدو أنه حذا فيه حذو الأصطخري، و لم يعد كتابته، ووضع اسمه عليه كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية[2]، ذلك أن كتاب ابن حوقل هو سجل لرحلاته، ومشاهداته، وقد يكون أخذ عنه منهجه، وأخذ منه بعض المعلومات ككل الباحثين والكتاب.

وقد عد الباحثون ابن حوقل من بين أصحاب المدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية التي اهتمت بوصف البلدان[3]، ولكنه تميز عنهم بمشاهداته لكل ما كتبه، ويقول عن تأليفه :" ولا يقارب هذا التأليف عنده كتاب الجيهاني ولا يوافق رسم ابن خرداذبة، وسبيل قارئه أرشده الله أن ينعم النظر فيما شك منه ويتأمله من حُمل عنه بتحري الصدق فيه كثير من غثاثة الناقلين، وكذب المسافرين الذين لا يعلمون ولا قصدهم الحق فيما يبغون"[4]، وكان باحثا ناقدا يتحرى تمحيص ما ينقل، فهو أكثر نقدا وتحريا من الإدريسي؛ فإنه نقل عن " كتاب العجائب " للحسن بن المنذر أخبارا لو رآها ابن حوقل

---

1 - انظر، أرنسك C. van. arendonk، ابن حوقل، **دائرة المعارف الإسلامية** (بيروت: دار المعرفة)، 145/1؛ 256/2.

2 - **نفسه**، 145/1.

3 - اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكو فسكي، تاريخ **الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، (ط، 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987)22

4 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، 5.

لرفضها[1] ؛ وتظهر دقته واضحة، ونقده العميق بشكل متميز فيما كتبه عن إقليم المغرب[2].

وقد اتصل في إفريقية بالفاطميين، واصطنعوه لهم عينا يعمل لحسابهم ضد الأمويين في الأندلس إذ كانوا يتطلعون إلى غزوه، وذلك في إطار مشروعهم القاضي بتكوين خلافة إسلامية ذات طابع شيعي؛ كما يرى البعض أنه قد يكون عينا للعباسيين[3].

ومعلوماته عن حواضر المغرب الأوسط مزيج مما أفاد به كتاب المسالك والممالك السابقين عليه، ومن رحلاته ومشاهداته، ويبدو أنه مر مرتين: الأولى عند ذهابه إلى الغرب (المغرب الأقصى والأندلس)، وقد انتقل عبر الطريق الساحلي، والثانية عندما كان عائدا من الغرب إلى الشرق، وقد سلك الطريق الداخلي عبر هضاب المغرب الأوسط، فكانت مشاهداته متنوعة، ومتباعدة شملت مناطق جغرافية متنوعة في بلاد المغرب عموما، والأوسط خصوصا.

– **الحركة الاقتصادية في حواضر المناطق الساحلية**: لقد تطرق ابن حوقل أثناء وصفه لمدينة ما، إلى بعض الجوانب التاريخية الخاصة بها مثل تحديد زمن بنائها أو خرابها، وبعض

---

1 – آدم ميتز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، (الجزائر/ تونس: المؤسسة الوطنية للكتاب، والدار التونسية للنشر، 1405/ 1985)، 459.

2 – الشيخلي صباح إبراهيم، النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن 4هـ/10 م "دراسة من خلال كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل"، **مجلة التاريخ العربي**، العدد، 6، ربيع سنة 1419/1998، ص، 25.

3 – انظر في شأن هذا القول: كراتشكو فسكي، **المرجع نفسه**، ص ص، 216، 221؛ ليفي بروفنسال، **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، دون تاريخ) 44؛ وأنظر أيضا سالم عبد العزيز، **التاريخ والمؤرخون العرب**، (بيروت: دار النهضة العربية، 1981)، 190.

الأحداث التاريخية التي شهدتها، والبناء الوظيفي لها من حيث حجمها ووظائفها: الإدارية، والدينية، والعسكرية، والاقتصادية، كما اهتم ببعض الجوانب الجغرافية لإقليم المغرب، فذكر ثرواته الطبيعية: زراعية وحيوانية، ومعدنية فضلا عن مصادر المياه فيه[1]، علما بأنه لم يهتم بالمدينة كفضاء محدود، إنما ككورة ـــ إقليم ـــ لاسيما الرستاق وهو المنطقة الزراعية التابعة للمدينة[2].

إن الحواضر (المدن وما جاورها) التي زارها وشاهد نشاطها الاقتصادي، وكتب عنها ـــ وهو في طريقه إلى الغرب ـــ هي على التوالي من الشرق إلى الغرب:

1 مرسى الخرز (القالة). 2 بونة (عنابة). 3 جزائر بني مزغنا (الجزائر). 4 تنس. 5 وهران.

وبين هذه الحواضر قرى أخرى ذكرها ابن حوقل باقتضاب، والتي كانت في عصره صغيرة لا تظهر أهميتها إلا في مراسيها كجيجل، وبجاية، ومرسى الدجاج، وتامدفوس (تامنفوست)، وشرشال، وبرشك وواسلن، وأرجوك على وادي تافنة؛ وقد أفادنا بصور عن الحركة الاقتصادية في مناطق هذه الحواضر تفصيلها في الآتي:

أ ـــ **الإنتاج الزراعي:** 1ـــ **الحبوب:** يتمركز الإنتاج الزراعي من الحبوب حسب إفادات ابن حوقل في أهم المناطق الساحلية التي تمتد فيها السهول الواسعة الخصبة، كسهول بونة (عنابة)، وجزائر بني مزغنا[3] (متيجة)، و وهران، حيث تزرع وتنتج

---

1 - **نفسه**، 27.

2 ـــ يذكر أن الجغرافي المقدسي المعروف بالبشاري المعاصر لابن حوقل قسم إقليم المغرب إلى سبع كور هي: برقة، وإفريقية، وتاهرت، وسجلماسة، وفاس، والسوس الأقصى، وصقلية، أحسن التقاسيم **في معرفة الأقاليم**، (ط، 3، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991/1411 ـــ تصوير)، 216.

3 - **جزائر بني مزغنا** يختلف رسمها بين كاتب وآخر في على التوالي: مزغنا، ومزغناي، ومزغنى، ومزغنة، انظر المصادر الجغرافية القديمة، المعتمدة خاصة في هذا البحث.

الحبوب كالقمح والشعير، كـــــما. يضيف ابن حوقل إلى هذه المناطق منطقتي شرشال وتنس[1] من حيث كمية إنتاج الحبوب بمختلف أنواعها.

2ـــ **البستنة وإنتاج الخضر والفواكه:** توجد في نفس مناطق زراعة الحبوب بالإضافة إلى أحواض الوديان، والمنحدرات الجبلية، وهي التي لم يشر إليها ابن حوقل لاسيما إنتاج الزيتون، لكنه أشاد بمردودها الوفير الذي يباع بأسعار رخيصة في أسواق الحواضر الـــتي زارها على ساحل البحر كمرسى الخرز (القالة) التي قال عنها: أن الزراعة بها تقل مـــع وجود الفواكه، ويبدو أنه لم يزر السهول الداخلية التي تتصل بالساحلية، لذلك لم يشاهد إلا ما عرض من محاصيل في أسواق حواضرها كمرسى الخرز[2]، وجزائر بني مزغنا، كما يظهر أنه لم ير السهول الساحلية الغربية للمغرب الأوسط عكس الشرقية لذلك جـــاءت معلوماته عنها قليلة ومضطربة.

وقد لاحظ ابن حوقل إنتاج هذه السهول الخصبة في أسواق الحواضر الساحلية الـــتي توقف عندها أو مر بها فذكر مستنتجا أن في نواحي جزائر بني مزغنا، وشرشال، يـــزرع

---

1 - **صورة الأرض**، 75، 76، وعند صاحب الاستبصار القرن 6 هـــ/12 م :" أن فحص (سهل) جزائر بن مزغنا كبير كثير الخصب تشتمه الأنهار " انظر، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، (الدار البيضاء/ المغرب: دار النشر المغربية، 1985)، 127؛ وأيضا، الحميري محمد عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق، إحسان عباس، (ط، 2، بيروت: مكتبة لبنان، 1984)، 163، ويذكر البكري في القرن 5 هـــ /11 م أنه كان يزرع بسهول جزائر بني مزغنا الكتان، والكروم، انظر، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**(بغداد: مكتبة المثنى)، 67؛ كما يذكر مارمول طربخال أن جيجل كان يزرع بها الكتان. أيضا، انظر، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، ومحمد زنيبر، ومحمد الأخضر، وأحمد التوفيق، وأحمد بن جلون، (الرباط: دار النشر المغربية، 1989)2/381؛ وتوجد أماكن أخرى كان يزرع فيها سنتعرض إليها في المناطق الداخلية، وهو ما يبين أن المغرب الأوسط كان إنتاجه متنوعا في هذه الفترة المزدهرة.

2 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، 75.

التين، والسفرجل المعنق، والأعناب، كما ينتج السفرجل المعنق في تنس الذي كان حسنا ناعما وحلوا وطيب الرائحة[1].

3 ــ **الإنتاج الحيواني**: يتمثل الإنتاج الحواني في تربية الحيوانات وما تنتجه من لحوم، وألبان، وجلود، وسمن، وعسل، ذلك من مصدرين أساسيين هما:

الأول ــ انتاج البحر: والذي يتمثل في أنواع السمك لاسيما وأن كل هذه الحواضر واقعة على ساحل البحر وبها موانئ هامة كمرسى الخرز (القالة)[2]، وبونة، وجيجل، وبجاية، وجزائر بني مزغنا، وشرشال، وتنس ووهران والمرسى الكبير.

الثاني ــ إنتاج البر: والذي يأتي من تربية الأبقار، والأغنام، والنحل خاصة، يذكر ابن حوقل كثرة الماشية في بونة، وجزائر بني مزغنا، ووهران، ويقول: أنها تعيش سائمة (دون حراسة) في السهول والجبال، والسائمة أكثر من المحروسة[3]، وقد وفرت الماشية اللحوم، والألبان ومشتقاتها خاصة السمن الذي تحدث عنه ابن حوقل كثيرا بالإضافة إلى ما تنتجه من الصوف، ويبدو أن السمن كان يسوق في الداخل ويصدَّر إلى الخارج، كما لاحظ أيضا إنتاج العسل بكميات كبيرة في كل من مناطق مرسى الخرز، وبونة، وجزائر بني مزغنا، وشرشال، والحصول عليه كان يأتي من مصدرين:

الأول: الأشجار الموجودة في الجبال، وكذا المغارات والكهوف حيث يتخذ منها النحل مقاما له، وهذا ما يدعى بالنحل البري، وعسله أكثر جودة،

الثاني: من الأجباح[4] حيث يربى النحل[5].

---

1 - نفسه، 78.

2 - نفسه، 75.

3 - نفسه، 75.

4 - هذا الاسم ما زال مستعملا حتى اليوم في بلاد المغرب عموما والمغرب الأوسط خصوصا.

5 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، 77.

4 ــ **المعادن والــصناعة:** لم يتعرض ابن حوقل بشيء من التفصيل إلى أنــواع المعــادن، والصناعات التي لا ريب أنها كانت منتشرة في حواضر المغرب الأوسط شأنها في ذلــك شأن حواضر المغرب والعالم الإسلامي، ولم يذكر إلا المرجان في مرسى الخرز (القالــة)، والذي قال عنه ينبت كالشجر، وألمح إلى وجود الحديد بنواحي بونة[1].

5 ــ **التجـــــارة:** كانت الفعاليات التجارية لمغرب القرن 4 هــ/10 م كما صورها كتاب صورة الأرض نشطة وواسعة ومتنوعة تدر أرباحا كبيرة على تجارها، وأسباب هذا الانتعاش التجاري يجدها الباحث المتمعن مبثوثة بين سطور كتابه[2] نذكر منها: النشاط الزراعي الذي كان يقوم بدور أساسي ومهم في نشاط الحركة التجارية، فقد كانت المنتجات الزراعية في مقدمة السلع هذه الحركة، وهذا ما أكد عليه ابن حوقل مرارا عندما يربط بين إنتاج منطقة، وأهلها التجار فيقول مثلا: "وجمعت تاهرت بين توفر المحاصيل الزراعية والأشجار والبساتين وبين التجارة الواسعة"[3]، وتعضد الإنتاج الثروة الحيوانية التي كانت هي الأخرى من الأسباب المنشطة للحركة التجارية.

ويبدو أن ابن حوقل باعتباره رحالة يتكسب بالتجارة لاحظ عن كثب النشاط التجاري في حواضر المغرب الأوسط، فتحدث بشيء من التفصيل والدقة عن الأسواق، وحركة التجارة في الداخل والخارج، وفي المراسي التي كان يصدر منها إنتاج المغرب الأوسط، كما أشار إلى تنظيمها في رحلته الساحلية وتفصيل ذلك كالآتي:

ــ **الأســـواق:** يبدو أن الأسواق في حواضر المغرب الأوسط كانت منظمة، ذات شهرة واسعة النطاق، وحركة دائبة تدخل إليها البضائع، وتخرج منها باستمرار، ومن

---

1 - **نفسه**، 75، 76، وهي تقريبا نفس ما أشارت إليه بعض المصادر كالأدريسي، **المغرب العربي**، 154، 153؛ مجهول، **الاستبصار**، 126، الحميري، **الروض المعطار**، 538.

2 - الشيخلي صباح إبراهيم، **المرجع السابق**، 29.

3 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، 86.

هذه الأسواق التي تحدث عنها ابن حوقل وشاهدها سوق بونة (عنابة) التي قال عنها:" أنها ذات تجارة رابحة"[1]، كما أشار ضمنيا إلى أسواق الحواضر الساحلية عندما تكلم عن التجارة منها أسواق جزائر بني مزغنا الكثيرة[2]، لكن لم يعط عنها تفاصيل ضافية.

ـــ **تنظيم التجارة**: يذكر ابن حوقل أنه كان للتجارة **أمناء**، ومراصد (نقاط مراقبة) على المتاجر في الحواضر لاسيما على البضائع الداخلة، أو الخارجة منها أي الواردات والصادرات، و**ناظر** يراقب الحركة التجارية، وعلاقات التجار فيما بينهم، وتعاملاتهم مع الناس، وكل ما يخرج من المدن، كما أشار إلى وجود **سماسرة** (وسطاء) لتسويق بعض المنتجات كالملجان[3].

إن دل ما تقدم ذكره على شيء فإنما يل على تطور الحركة الاقتصادية بسواحل المغرب الأوسط خلال القرن 4 هـ/ 10 م ليس فقط في كميات الإنتاج المسوقة ونوعها، ولكن في تنظيم الحركة التجارية من خلال وجود ضوابط تحكم هذه تحكمها وتسيرها مما يوفر الأمن للمنتجين، وللتجار، ومن ثم إشعاع الرخاء الذي يستفيد منه المواطن مباشرة والدولة، وهو ما عبر عنه ابن حوقل في أكثر من موضع يقول عن رخص الأسعار في أسواق بونة (عنابة): "ولها أسواق حسنة وتجارة مقصودة، أرباح متوسطة وفيها ورخص موصوف)"[4].

---

1 - **صورة الأرض**، 75.

2 - **نفســه**، 76، يذكر البكري بعض الأسواق التي لم يتعرض لذكرها ابن حوقل كسوق مرسى الخرز التي قال" أنها عامرة" ص، 55؛ وأسواق وهران؛ أنظر، الحميري، **الروض المعطار**، 612.

3 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، 75.

4 - **نفسه**، 75.

أ ــ **التجارة الداخلية**:وتتمثل في تبادل المنتجات، والبضائع بين الحواضر الساحلية والداخلية، وسكان الأرياف، وهذا النوع كان حركيا ورابحا يدل ذلك عليه رخص أسعار المنتجات كالقمح، والشعير، والفواكه، والتين، والمواشي، والألبان، والعسل[1].

ب ــ **التجارة الخارجية**: لقد كان التبادل التجاري في وقت ابن حوقل يتم بين حواضر سواحل المغرب الأوسط، وحواضر سواحل إفريقية والأندلس وجزر المتوسط، وجنوب إيطاليا، حث تصدر من جزائر بني مزغنا إلى القيروان البضائع المتنوعة كالقمح، والشعير، والعسل، والسفرجل المعنق، والتين[2].

كما كان الحديد والمرجان يصدر من بونة (عنابة)، ومرسى الخرز (القالة) إلى الأندلس، وإفريقية وإيطاليا [3]، ويبدو أن حركة التجارة في المنطقة الساحلية الغربية للمغرب الأوسط كانت أقوى وأنشط منها في المنطقة الساحلية الشرقية حسبما يستنتج من إفادات ابن حوقل، وذلك لارتباط هذه المنطقة بالأندلس وقربها منها، وسهولة التنقل إليها، ولتطور الحياة الاجتماعية هناك، وهو ما يبين أنه بالرغم من الاختلافات السياسية

---

1 – نفسه، 76. يذكر **البكري** بعض الأسواق التي لم يرد ذكرها عند ابن حوقل كسوق مرسى الخرز التي قال أنها عامرة، 55؛ ويذر أيضا صاحب **الروض المعطار** أسواق وهران، انظر، **المغرب**، 612.

2 – ابن حوقل، **صورة الأرض**، 75.

3 – يؤكد هذا التبادل الواسع الرحالة والجغرافيون منهم **البكري**، وصاحب **الاستبصار** فيقولان أن مرسى جزائر بني مزغنا مأمون مقصود، وأن المرجان كان يحمل إلى بلاد الدنيا، انظر على التوالي ص، 67، وص، 132؛ أما **الإدريسي** فيذكر أن التجار يقصدون مرسى الخرز من مختلف الأقطار، ص، 153؛ وجاء في **الروض المعطار** عن مرسى الدجاج أن الزروع والفواكه، واللحوم، رخيصة ذات شرائح منشورة إلى سائر الأقطار، ص، 539؛ وفي نفس الموضوع يقول أنها كانت تصدر الطعام إلى الأندلس، وأكثر إلى بلاد إفريقية، وفي القرن 4 هـ/ 10 م يذكر **الوزان** هذه الخاصية لكثير من حواضر المغرب الأوسط الساحلية فيقول عن بونة :" أن السفن تأتي مرساها من جربة، وتونس للتزود من أسواقها العامرة، انظر، **وصف إفريقيا**، 62/2.

الحادة أحيانا فإن المجال الاقتصادي ظل مفتوحا لسكان المغرب الأوسط والأندلس،والعالم الإسلامي، فتجار الأندلس مثلا ظلوا في حركة دائبة جيئة وذهابا كما يقول ابن حوقل عند تعرضه لحاضرة تنس[1].

ويتبين من هذا أن المغرب الأوسط من خلال التجارة الساحلية كان مفتوحا على العالم الخارجي، وكانت علاقاته مع مختلف البلدان مبنية على أساس تبادل المنفعة، كما كان في عصر ابن حوقل (القرن 4 هـ/ 10م) مزدهرا اقتصاديا، ولا ريب أن هذا الازدهار قد أدى إلى تطور في المجتمع، والثقافة، والعلوم، وهي مواضيع أخرى قد نعود إلى دراستها والبحث فيها في وقت آخر.

– **المراسي**: تعد مراسي ساحل المغرب الأوسط شريان نشاطه الاقتصادي، ومركز اتصال بالعالم الخارجي، فهي أحد القواعد الهامة في الحركة التجارية البينية، وقد قال ابن حوقل عن أهم المراسي التي ذكرها ـــ والتي يبدو أنه زار عدد منها: "هذه جملة أحوال المدن المشهورة، والمراسي والقرى المعروفة على نحر بحر المغرب من حد برقة إلى البحر المحيط ما انتهيت إليه ,أدركته بالعيان أو أخذته عمن نشأ فيه"[2]، و منها مراسي المغرب الأوسط التي قدم عنها بعض التفاصيل هي كالآتي:

1 ـــ مرسى الخرز (القالة): والتي ذكر أن بها حوالي خمسين قاربا كل قارب عليه عشرون رجلا[3]، وأن هذه القوارب مخصصة لصيد المرجان[1].

---

1 – **صورة الأرض**، 77.

2 – **صورة الأرض**، 83.

3 – **نفسه**، 75. لا ريب أن مرسى بونة كانت قائمة فهل أهمل ذكرها ابن حوقل، أو أنه لم يتوقف بها، أو مر بها سريعا، وبذلك لم يشهد نشاطها، وحسب المصادر فإن مرسى بونة تراجعت أهميتها في هذا القرن 4 هـ/ 10 م والقرون الموالية؛ يقول عنها صاحب **الاستبصار**: " أن مرسى بونة كانت تسمى مرسى الأزقاق، وهو من المراسي المشهورة". انظر ص، 127؛ وذكر **الإدريسي** في القرنين 6 و7

2 ــ مرسى الدجاج: وكان يصدر منها عدد من المنتجات كالفواكه والقمح، والشعير، والحيوانات، ومنتجاتها، والتين.

3 ــ مرسى وهران: التي يعدها ابن حوقل من أهم المراسي في عصره، فهي تتوفر على كافة وسائل الأمن والسلامة، وأن الصيانة بها قائمة وجيدة.

4 ــ يذكر ابن حوقل بعض المراسي الأخرى والأقل أهمية من هذه كمرسى موسى، وواسلن، وأرجوك، على نهر وادي تافنا، والتي تبعد عن البحر بميلين[2]، وجزائر بني مزغنا، وتنس[3].

الحركة الاقتصادية في حواضر المناطق الداخلية: من أهم الحواضر التي زارها ابن حوقل أو مر بها في طريق عودته من الأندلس والمغرب الأقصى هي على التوالي: تلمسان، وتاهرت، وسطيف، والمسيلة، وطبنة، ونقاوس، وباغاي، ومسكيانة، وتيجس، وتيفاش، وهي حواضر واقعة في المناطق الداخلية، والتي تعرف جغرافيا بالمناطق الهضابية التي تمتد بين التل والصحراء، وذكر ابن حوقل الطرق التي تربط بينها، والقرى الصغيرة الواقعة عليها، وتعرض باختصار إلى طبيعتها، ومحاصيلها الزراعية، وبعض الأنشطة الاقتصادية الأخرى كما يأتي:

1 ــ الإنتاج الزراعي:

هـ/12 و13 م أن المدينة في حالة ضعف، وقلة عمارة، ص، 154؛ فهل ذلك بدأ منذ القرن 4 هـ/ 10 م ؟

1 - ومرسى الخرز يذكرها **البكري في القرن 5 هـ/ 11 م ويقول: أنها كانت مرفأ للسفن، كما** كانت تصنع بالمدينة المراكب الحربية التي كانت يغزو بها بلاد الروم، وخاصة القريبة كجزيرة سردانية، ص، 55.

2 - الميل يساوي: 1840 م، وبالتالي فالبعد يقدر تقريبا بـ 2 كم.

3 - **نفسه**، 75.

إن حواضر المنطقة الداخلية المذكورة أعلاه لاسيما تلمسان، وتاهرت، وطبنة، وباغاي، والمسيلة تنتج الحنطة والشعير، وتختص بعضها في عدد من المنتوجات كطبنة التي تنتشر بها البساتين، وتنتج القطن، والكتان بجميع أنواعه، كما يزرع في المسيلة الكرم، والسفرجل المعنق، وكثير من الغلات[1]، ويذكر أن في تيفاش تنتشر الأجنة ذات الرياحيين، والغابات التي تشكل موردا هاما للخشب[2].

ويلاحظ أن ابن حوقل قدم إفادته عن بعض حواضر شرق المغرب الأوسط حيث يبدو أنه مكث بها طويلا عكس الغرب، وقد يكون مر ببعضها ليلا لظروف خاصة، والمناطق التي ذكرها ذات إنتاج كثير ومتنوع لاسيما القطن، والكتان الذي انعدم إنتاجه في المنطقة في عصرنا [3].

2 ــ **الإنتاج الحيواني:** المنطقة الداخليلة (الهضاب) منطقة المراعي الشاسعة، ولذلك لاحظ ابن حوقل ذلك، وذكر أن بباغاي، وطبنة، والمسيلة، وتاهرت، توجد كثيرا من الحيوانات كالبقر، والغنم، ومختلف الدواب الأخرى منها الخيول والبغال[4]، وقد كانت

---

1 – **نفسه**، 85، 88، يذكر **الإدريسي** أن بالمسيلة كان يزرع القطن، 188 ويؤكد صاحب **الاستبصار** في عصره أن بطبنة بساتين كثيرة، وفواكه عجيبة منها الجوز الذي يضرب به المثل في جودته، ص، 163، وقال عنها صاحب **الروض المعطار**: طبنة أعظم بلاد الزاب كثيرة المياه والبساتين والزروع، والقطن والشعير، ص، 76. والملاحظ أن جل هذه الزراعات لم يعد موجودا اليوم فما أسباب ذلك ؟ هل يعود ذلك إلى عوامل طبعية أم بشرية، أم إلى عوامل أخرى؟

2 – يذكر **البكري** في القرن الخامس الهجري أن بتيفاش عيون كثيرة، ص، 53؛ ويؤكد هذا صاحب **الروض المعطار** ويضيف أن أكثر غلاتها الشعير، ص، 146.

3 – وهذه الحقيقة يؤكدها الرحالة الجغرافيون، **فالإدريسي** يقول عن المسيلة في القرنين 6 و7 الهجريين أن بها مزارع واسعة منها مزارع القطن، وأن من وديانها وأحواضها تنتج السمك الطويل إلى جانب تربية الأغنام، والأبقار. ص، 108.

4 – **صورة الأرض**، 85، 86.

تدر على أهل المنطقة بإنتاج الصوف والجلود، والألبان، واللحوم، ويبدو أن هذا الازدهار استمر لعدة قرون بعد ابن حوقل أو بعد القرن 4 هـ/ 10 م[1]، لكنه تضاءل فيما بعد حتى يكاد ينعدم اليوم في بعضه لاسيما تربية الأبقار؛ كما يفيد ابن حوقل أن في هذه المناطق كان يربى النحل الذي ينتج كثيرا من العسل خاصة في تاهرت[2].

3 ـ **المعادن والصناعة:** لا يذكر ابن حوقل كما سلف ذكره إلا بعض المعادن كالحديد، والفضة، وحجارة المطاحن خاصة في بونة ومجانة، أما فيما يخص الصناعة فإنه يذكر الأرحية (طواحين الحبوب) لاسيما في المنطقة الغربية من المغرب الأوسط كتلمسان، ومليانة[3].

وانتشار المطاحن بهذا الشكل يدل على وفرة الإنتاج من جهة، وعلى تحسن المعيشة بتوفر أنواع الأغذية من جهة أخرى، وبالتالي رفاهية المجتمع وتقدمه الحضاري؛ كما أن زراعة الكتان في والقطن ـ إضافة إلى الصوف ـ في مناطق مختلفة من المغرب الأوسط

---

1 - يذكر **الإدريسي** في القرنيين 6 و 7 هـ/ 12 و 13 م أن المسيلة تربى بها الأغنام، والأبقار، والسمك، ولذلك كان إنتاج اللحوم وفير. انظر، ص، 108؛ أما صاحب **الروض المعطار** فإنه يذكر أن بها في عصره الخيل، والبقر، والغنم، وأكثر إنتاجها السمن والعسل، ص، 126.

2 - **صورة الأرض**، 86، يؤكد إنتاج العسل هذا **الإدريسي** في القرن 6 و7 هـ/ 12 و13 م. انظر، ص، 110؛ وصاحب **الروض المعطار**، ص، 126.

3 - **صورة الأرض**، 89، 90، يؤكد ما ذهب إليه **البكري** الذي يذكر في القرن 5 هـ/11 م كثرة المطاحن بتاهرت، انظر، ص، 67؛ وكذا **الإدريسي** الذي يفيد أن بمليانة أرحاء كثيرة، ص، 106، **والوزان** يفيد أن أرحية تلمسان تقع في المنحدرات. انظر، وصف أفريقيا، 20/2؛ ومعلوم أن الأرحية (الطواحين) في هذا العصر كانت تدار بقوة المياه، ومن ثم فإن توفر المياه من الأودية، والأبار، والعيون أدى إلى استغلالها في المجال الصناعي التحويلي كطاقة تحريك، و لم يكن يتأت هذا إلا بتوفر عاملين توفر الإنتاج، والرخاء الاقتصادي، والتطور الاجتماعي.

منها على الخصوص طبنة، وبونة تدل هي الأخرى على وجود صناعة نسيجية ولو لم يذكرها غير حوقل .

4 ــ المـــاء: الماء عنصر هام من عناصر الحياة لاسيما في المناطق الداخلية التي تقل فيها نسبة التساقط، وتتعرض من حين لآخر للجفاف، وبالتالي فهي تعتمد في السقي على المياه الجوفية كالينابيع أو العيون، والأودية التي يجف معظمها في فصل الحرارة، والأبار لا على مياه الأمطار، ولذلك فإن كثيرا من مناطق وحواضر المغرب الأوسط عموما، والمناطق الداخلية خصوصا تحمل أسماء هذه الينابيع أو العيون كعين صالح، وعين وسارة، وعين الدفلة، والعين الصفراء، وعين مليلة، وعين البيضاء...، وقد لاحظ الرحالة والجغرافي ابن حوقل ذلك وسجله، فذكر أن لكل حاضرة وكل قرية تتغذى من نبع ــ عين ــ ماء، ويقول أن مسكيانة تغذيها عين الحوت، وباغاي يأتيها الماء من وادي جار إضافة إلى اعتمادها على مياه الأبار، كما أن طبنة، والمسيلة، وتلمسان تعتمد على مياه العيون، أما تيفاش، والقصر الإفريقي، وعين أركو فإنها تعتمد جميعا على مياه العيون الجارية[1].

5 ــ التجـــــارة: I ــ الأســـــواق: توجد في كل حواضر وقرى هذه المناطق أسواق أسبوعية، وموسمية، يذكر منها ابن حوقل أسواق مجانة، ومسكيانة، والأخيرة

---

1 - **صورة الأرض**، 84، 86، يتعرض الرحالة والجغرافيون إلى قضية المياه في هذه المنطقة الداخلية خاصة فيذكرون أن جل حواضر المنطقة وبسائطها ــ سهولها ــ تتغذى من العيون والأبار من ذلك تلمسان التي تأتيها المياه من الجبل القريب منها في انحدار شديد لذلك تقام عليها الأرحية كما سبق ذكره، والمسيلة تتغذى من عيون، انظر، البكر، 153، 167، **الإدريسي**، 100، 108؛ **الاستبصار**، 172، ويذكر أن بطبنة كانت توجد صهاريج تتجمع فيها المياه وتسقى منها البساتين، انظر، **الروض المعطار**، 126، 135، الوزاني، **وصف إفريقيا**، 20/2، مارمول، **إفريقيا**، 299.

يقول عن سوقها أنه ممتد كالبساط[1]، وسوق باغاي، وسوق أركو، وسوق إبراهيم، وسوق ريغة، وسوق كران وغيرها [2].

II ــ **التجارة الداخلية**: توجد داخل الحواضر حيث تنتشر الحوانيت، والدكاكين تسوق من خلالها للمقيمين من السكان، وكذا للواردين عليها، وبين المدن والقرى حيث تنقل المنتجات المختلفة من حاضرة إلى أخرى لتباع هناك .

III ــ **التجارة الخارجية**: لا يذكر ابن حوقل الكثير فيما يخص التجارة الخارجية في المنطقة الداخلية حيث يبدو أن منتجاتها كانت تصدر عن طريق المراسي عبر مراكز المنطقة الساحلية، وقد أورد إشارات خفيفة عندما تعرض إلى السفرجل المعنق الذي كان ينتج في مناطق المغرب الأوسط خاصة منطقة المسيلة التي يصدر من إنتاجها إلى القيروان، ولاشك أن كثيرا من البضائع كانت تصدر إما إلى مدن إفريقية أو إلى المناطق الصحراوية، وبلاد السودان، أو إلى الأندلس وجزر المتوسط، وهذا بعد أن تعد للتصدير كتجفيف ما يفسد منها، كما كانت للمناطق الساحلية مراسي معروفة تصدر منها هذه المنتجات، كما أفاد إفادات هامة فيما يخص الطرق البرية التي تنقل عبرها هذه السلع.

الطــرق التجاريـــــة: سأعرض هنا الطرق التي ذكرها ابن حوقل[3]، والتي يبدو أنه سار معها في ذهابه وخاصة في إيابه، وقد أفادنا بأسماء القرى والمدن والمراكز الواقعة على طولها، وبالمسافات التي بينها والتي يمكن أن تخص بدراسة مستقلة مقارنة وموضحة بخرائط ورسومات.

---

1 - **صورة الأرض**، 84، 86 .ونفس الوصف يورده **الإدريسي** في القرنيين 6 و7 هـ/12 و13 م. انظر ص، 158.

2 - يذكر الرحالة الجغرافيون أسواقا أخرى كسوق تاهرت، وتلمسان، وقسنطينة... انظر **البكري**، 67؛ والإدريسي، 110، 158؛ **الروض المعطار**، 126، 558؛ الوزاني، **وصف إفريقيا**، 62/2

3 - **صورة الأرض**، ص ص، 75 ــ 77 ثم 84 ــ 89.

1 ــ **الطريق الساحلي**: والذي يمتد على طول ساحل المغرب الأوسط من الشرق إلى الغرب انطلاقا من مرسى الخرز وانتهاء بمرسى وهران، وقد سبق أن أوضحنا ذاك في القسم الأول من هذه الدراسة.

2 ــ **الطرق الداخلي**: والذي يمتد من الشرق إلى الغرب، ويتفرع في المنطقة الشرقية من المغرب الأوسط إلى أكثر من ثلاثة فروع، أما في المنطقة الغربية فإن هذه الروع تقل، وابن حوقل ذكرهذا الطريق الداخلي في جزئه الشرقي انطلاقا من الشرق، والعكس بالنسبة للجزء الغربي فقد ذكره من الغرب باتجاه الشرق، وتوضيح ذلك في الآتي:

القسم الشرقي: الفرع الأول: يبدأ من مجانة ــ تيجس ــ مسكيانة ــ باغاي ــ دوفانة أوراس ــ دار ملول ــ طبنة ــ مقرة ــ المسيلة ــ جوزا ــ هاز جرتيل ــ ابن ماما ــ تاهرت. وهذا الطرق يتفرع إلى عدة فروع هي كالآتي:

* من تيجس ــ بتجاهة بونة شمالا؟
* من تيجس باتجاه قسنطينة ــ ميلة ــ سطيف ــ المسيلة.
* من سطيف باتجاه جمزة ــ أشير.
* من باغاي باتجاه بلزمة ــ نقاوس ــ طبنة.

الفرعىالثاني: إلى الشمال من الأول ينطلق من تيفاش باتجاه قصر الإفريقي ــ أركو ــ تيجس نمزدوان ــ مهريين ــ تامسنت ــ دكمة ــ أو سجيت ــ المسيلة ــ أشير.

الفرع الثالث: جنوب الأول وهو من الغرب باتجاه الشرق حيث ينطلق من المسيلة باتجاه مقرة ــ طبنة ــ بسكرة ــ تهوذا ــ مدالة.

القسم الغربي: الذي ذكره ابن حوقل من الغرب إلى الشرق، وهو الذي سلكه عند عوده من رحلته انطلاقا من فج الجبل (ممر تازا) باتجاه مزاوروا ــ صاع ــ جراوة أبي العيش ــ ترفاتة العلويين ــ تنمسان ــ العلويين ــ تاتاتلوت ــ وادى الصفاصف ــ أفكان ــ تاهرت ــ المعسكر ــ جبل توبان ــ عين الصفاصف ــ يلل ــ عزه ــ سوق

إبراهيم تاجنة ـــ تنس ـــ بني واريفين ـــ الخضراء ـــ مليانة ـــ سوق كروان ـــ ريغة ـــ رطل مازوغه ـــ أشير ـــ تامزيكا ـــ الوادى المالح ـــ المسيلة ..ومن ثم نحو الفروع المذكورة أنفا.

إن **هذه الإطلالة** السريعة والمركزة حاولت من خلالها إبراز المعالم الاقتصادية، للمغرب الأوسط (الجزائر)، وذلك انطلاقا من معلومات رحالة جغرافي عاش عن كثب صور هذه المعالم، فلم يكتف بما قرأه، واطلع عليه في الكتابات السابقة في هذا المجال، بل انتقل بنفسه لمعاينة الأوضاع الاقتصادية في هذه المنطقة، وأخذ لذلك طريقين: ساحلي عند الذهاب، وداخلي عند الإياب، فوقف بنفسه على الإمكانيات الاقتصادية الهائلة والمتنوعة للمغرب الأوسط، وما يلاحظ على إفادات ابن حوقل، وحتى على بعض الجغرافيين الذين جاءوا بعده أنهم لم يتعرضوا إلى المعادن والصناعة بالقدر الذي تعرضوا به للزراعة والتجارة، وهو الأمر الذي يدعو إلى الدهشة، لاسيما وأنهم ذكروا العديد من المواد الأولية التي تنتج في المغرب الأوسط وتدخل في التصنيع كالقطن، والكتان، والصوف، وبعض المعادن كالحديد، ولعل مرد ذلك إلى أن الصناعة كانت منزلية عائلية كصناعة المنسوجات، والفخاريات، وهو ما يجب أن توجه إليه عناية الباحثين، فكتب الحسبة، والنوازل، والطبقات، إلى جانب مؤلفات الرحالة والجغرافيين، والأبحاث الأثرية تسهم جميعا في بلورة هذه الجوانب.

وفي الختام يمكن القول أن مصادر الرحالة الجغرافيين توفر للباحث في المجال الاقتصادي مادة علمية معرفية جد هامة، وأكثر دقة، وأقرب للواقع بالمقارنة مع لمصادر الأخرى لاسيما كتب التاريخ العام، وأبن حوقل من هؤلاء الرحالة الذين زاروا بلاد المغرب الأوسط، ونقلوا صورة صادقة عن نشاطه الاقتصادي لاسيما الحركية التي شهدتها حواضره.